خامسًا : الإعجازُ بينَ النَّظريَّةِ والتَّطبيقِ للسّيّد كمال الحيدريّ

أصلُ هذا الكتاب محاضراتٌ قدّمها السّيّد كمال الحيدريّ في حوزة قم المقدّسة في المعجزة وحقيقة الإعجاز القرآنيّ ، جمعها الشبخُ نعمةُ الجيّاشيُّ وأخرجها بهيأة كتاب بعد تدوينها وإبداء الملاحظ الفنيّة والتّوضيحيّة عليها بما كان له أثرٌ واضحٌ ومفيد في صياغتها بهذه الصّورة .

وجريًا على نهجها في دراسة الكتب السّابقة فسنحاول بيانَ أهمِّ معالمِ هذا الكتاب ومظاهرَهُ ؛ من أجلِ رسمِ تصوّرٍ بيّنٍ له ، وهي :

١- سببُ التّأليف وهدفُهُ

لمّا كانتْ المعجزةُ القرآنيّةُ تمثّلُ اللّبَبَةَ الأساسيّةَ أو حجزَ الزّاوية الّتي يتّكِئ عليه إثباتُ صدق دعوى السَّفارة الإلهيّة عند الأنبياء والمُرسلينَ ، فالأمرُ المُعْجِزُ الّذي يجري على يد النَّبيِّ أوِ الرَّسولِ هو الدَّليلُ القطعيُّ على صدقِ دعوى النّبوّة والصِّلة باللهُ تعالى ، تأسيسًا على ذلك تتضحُ المكانةُ الكبرى الّتي يمثّلُها البحثُ عنِ المعجزةِ في الفكر الدّينيّ والعَقَدِيّ .

فالقرآنُ الكريمُ هو المعجزةُ الإلهيّةُ الخالدةُ الّذي نزل به الرُّوحُ الأمينُ على قلبِ النّبيّ الأعظم (صلّى اللهُ عليه وآله وسلّم) ، وقد تسالمَ العلماءُ أنّ القرآنَ الكريمَ كتابٌ سماويٌّ مُعْجِزٌ لايستطيعُ الإنسانُ مهما عَظُمتْ طاقاتُهُ على الإتيان بمثلِهِ ، من هنا فالدّعوة حاضرةٌ سامحةٌ سانحةٌ إلى الإشارة إلى ملاكِ إعجازِهِ ووجهِ تفوّقه ، وسيراً على هدْيِ هذه الحقيقةِ تأتي هذه الدِّراسةُ ، لبيان حقيقة المعجزة والإعجاز وتِبيان الوجوه الّتي قيلتْ في إعجازِ القرآنِ الكريمِ (٣٠).

٢- هيكليّةُ الكتابِ وعمارتُهُ

تهيكلَتْ خُطّةُ الكتاب على قسمينِ ، الأوّلُ : حقيقة الإعجاز . انعقدَ في فصلينِ ، الأوّل : تعريف المعجزة . الثاني : ظاهرةُ النُّبوّةِ وحقيقتُها .

القسمُ الثّاني : وجوهُ الإعجازِ في القرآنِ الكريمِ . انعقد في فصلين ، الأوّل : وجوهُ الإعجازِ القرآنيِّ . الثّاني : بحثُ الإعجازِ في ضوءِ التَّحدّي القرآنيّ .

٣- التّعريفُ الكلاميُّ والفلسفيُّ للمعجزة

عرَّفَ السّيّدُ الحيدريُّ المعجزة بلحاظينِ ، لحاظٍ كلاميّ ولحاظٍ فلسفيٍّ ، وقد أفادَ من بياناتِ القدماء في عرضِ تلكمُ التّعاريفِ .

فمن التّعاريف الكلاميّة للمعجزة ، تعريف نصير الدّين الطّوسيّ (ت ٦٧٢هـ) وهو : ((ثبوت ما ليس بمعتاد أو نفي ماهو معتاد مع خرق العادة ومطابقة الدّعوى))(٣١). وتعريف القرطبيّ (ت ٦٧١هـ) في تفسيره : ((سمّيت معجزةً ؛ لأنَّ البشرَ يعجزون عنِ الإتيان بمثلِها))(٣٢).

وتعريف القوشجيّ (ت ٨٧٩هـ) بأنّها ((الأمر الخارق للعادة المقرون بالتّحدّي مع عدم المعارضة))(٣٣). وعرّفها الآلوسيُّ (ت ١٢٧٠هـ) بأنّها : ((الأمرُ الخارقُ للعادة يظهرُ على يد مدّعي النّبوّة عند التّحدّي))(٣٤). وعرّفها محمّد جواد البلاغيّ (ت ١٣٥٢هـ) :((المعجزُ هو الّذي يأتي به مدّعي النّبوّة بعناية الله الخاصّة خارقًا للعادة وخارجًا عن حدود القدرة البشريّة وقوانينِ العلم والتّعلّم ؛ ليكون بذلك دليلًا على صدق النّبيّ وحجّته في دعواه النّبوّة ودعوته))(٣٥).

ومنَ التّعاريف الفلسفيّة للمعجزة والأمر المعجز ما ذكره من تعريف الطّباطبائيّ (ت ١٤٠٢هـ) ، وهو : ((تحقّق الأمر الخارق للعادة الدّال على تصرُّف ما وراء الطّبيعة في عالَمِ الطّبيعةِ ونشأة المادّة لا بمعنى الأمر المُبطِل لضرورة العقل))(٣٦).

ويرى الحيدريُّ أنّ المفهومَ الكلاميَّ للمعجزة يفترضُ وجود دعوى ومدّعٍ للسّفارة الإلهيّة ، وأنْ تكونَ المعجزةُ شاهدًا على صدق دعواه ، أمّا المعجزةُ بمفهومها الفلسفيّ فهي لاتفترضُ شيئًا من ذلك ، أي لا يعني الأمرُ المعجزُ فلسفيًّا إلّا كونه خارقًا للعادة لاينسجمُ مع القوانين والسُّنَن الّتي تحكمُ عالَمَ الطّبيعةِ والمادّة ، والّذي يهمُنا - والكلام للحيدريّ - في هذا البحث هو المفهوم الفلسفيُّ للمعجزة (٣٧).

٤- القرآن الكريم هو الفيصلُ في معرفة حقيقة الإعجاز

أبرقَ الحيدريُّ بلزوم الرُّجوعِ إلى القرآن الكريم ؛ من أجل معرفة حقيقة الأمر المعجز والقوانين الّتي تحكمه في نظر القرآنِ ؛ ليتضح أن المعجزات الّتي أثبتتْها الشّرائع السّماويّة جميعًا لا تنافي قوانين العقلِ والفطرة الإنسانيّة (٣٨).

ومنَ المسائل المتّصلة بهذا الأمرِ إثباتُ القرآن ما يخرق العادة ولاينافي العقل ، وهي ليست منَ الأمور المستحيلة ذاتًا ويبطلها العقلُ ، ويستدلّ على ذلك بتصوّر الطّباطبائيّ : إنّ القرآن يقتصُّ ويخبرُ عن جملةٍ منَ الحوادث والوقائع لايساعد عليه جريان العادة المشهودة في عالَم الطّبيعة على نظام العلّة والمعلول الموجود ، وهذه الحوادثُ الخارقة للعادة هي الآيات المعجزة الّتي ينسبُها إلى عدّة منَ الأنبياء الكرام كمعجزات نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وداود وسليمان وموسى وعيسى- (عليهم السلّام) ومحمد (صلّى الله عليه وآله وسلّم) فإنّها أمور خارقة للعادة إلّا أنّها ليست مستحيلة بالذات فيبطلها العقل الضروري (٣٩)

٥ -القرآنُ الكريمُ يعدُّ المعجزةَ برهانًا على صِحّةِ الرّسالةِ

إن الدّليلَ القطعيَّ لإثباتِ النُّبوّةِ هو إقامةُ المعجزةِ على يد مدّعي الرّسالة أوِ النُّبوّةِ ، ولابدّ أن تتوافرَ هذه الدّعوةُ على حقيقتينِ ، هما:

أ - الارتباطُ باللهِ سبحانه وتعالى وأنّه يوحى إليه منَ السّماء.

ب- ادّعاءُ صحّةِ المعارفِ والعُلُومِ الّتي يخبرُ عنها بواسطة رسالته الّتي أتى بها منَ اللهِ عزّ وجلّ كمعارف المبدأ والمعاد وأصول التّوحيد وقوانين الأخلاق والفضائل وغيرها (٤٠) .

وينفرد القرآنُ بميّزة خاصّة لاتتوافرُ في غيره من معجزات الأنبياء والرّسالات السّماويّة ذلك أنّه يمثّل المعجزة الّتي تستندُ عليها النّبوّة الخاتمة ، فهو معجزٌ على مدى الأزمان والعصور والدّهور إلى يوم القيامة ، من هنا فلابدّ من إثبات الإعجازِ القرآنيّ في خِضمّ هذا التَّحوّل الهائل الّذي تشهدُهُ السّاحةُ الإنسانيّةُ على مستوى العُلُوم والمعارف والأفكار والثَّقافات الّتي يزخرُ بها الفكرُ البشريّ.

٦ -فرْشُهُ وجوهَ الإعجازِ

من أجل تِبيانِ الوجه المختار استعرض الحيدريُّ وجوه الإعجاز القرآنيّ ، إذ يرى أنّ الإعجازَ القرآنيَّ لاينحصرُ بوجه واحدٍ ، وإنّ افتراض وجود وجوه للإعجاز دليلٌ على تعدُّدها.

وقدِ استعرض وجوه الإعجاز بالإفادة من بيانات العلماء المحقّقين بخصوص الإعجاز القرآنيّ ولاسيّما المفسّرون وممّن كتبوا في علوم القرآن ، وأولى الإشارات التي ذكرها ما نقله عن الماورديّ (ت ٤٥٠هـ) أنه ذكر ثمانية وجوه للإعجاز ،ثمّ ذكر الوجوه الّتي أشار إليها القرطبيّ وكذلك الوجوه التي ذكرها الآلوسيّ ومحمد جواد البلاغيّ والطّاهر بن عاشور (٤١) .

وبنا حاجة إلى ذكر الوجوه الّتي ذكرها محمد جواد البلاغيّ والطّاهر بن عاشور ؛ لما فيها من جدّة في استعراض وجوه أخرى.

قال البلاغيّ : ((إنَّ للقرآن المجيد أيضًا وجوها منَ الإعجاز ممّا يشتركُ في معرفتِها كلُّ بشرٍ ذي رُشْدٍ إذا اطّلع عليها وهي عديدة نشير إلى بعضها (إعجازه من وجهة التّاريخ) ... (إعجازه من وجهة الاحتجاج) ...(إعجازه من وجهة الاستقامة والسّلامة منَ الاختلاف والتّناقُض)...(إعجازه من وجهة التّشريع العادل ونظام المدينة) ،(إعجازه من وجهة الأخلاق) ، (إعجازه من وجهة علم الغيب)))(٤٢).

فنلمح ذكرًا لوجوه جديدة ،منها : الإعجاز الحجاجيّ ، والإعجاز التاريخيّ ، والإعجاز الأخلاقيّ ، والإعجاز المجتمعيّ.

أمّا الوجوه التي ذكرها نقلًا عن الطّاهر بن عاشور ، فقال : ((أمّا ابن عاشور (صاحب تفسير التّحرير والتّنوير) فقال في بيان وجوه إعجاز القرآن : فنرى ملاك وجوه الإعجاز راجعًا إلى ثلاثِ جِهات ، الجهة الأولى : بُلُوغه الغاية القصوى ممّا يمكن أن يبلغه الكلام العربيّ البليغ من حصول كيفيّات في نَظْمِه مفيدة معاني دقيقة ونكتًا من أغراض الخاصّة من بلغاء العرب ...الجهة الثّانية : ما أبدعه القرآن من أفانين التّصرّف في نَظْم الكلام ممّا لم يكن معهودًا في أساليب العرب ...الجهة

الثّالثة : ما أودع فيه منَ المعاني الحكيمة والإشارات إلى الحقائق العقليّة والعلميّة ممّا لم تبلغ إليه عقول البشر))(٤٣).

والمتأمّل ذكره وجهًا جديدًا من وجوه الإعجاز وهو ما آودعه الله تعالى منَ المعاني الحكيمة والإشارات إلى الحقائق العقليّة والعلميّة.

٧ -الرّأي المختار في إعجاز القرآن

يرى السّيّدُ الحيدريُّ أنّ القرآنَ معجزٌ من جميع نواحيه ، فلوِ اقتصر على جهة واحدة دون أخرى ، فهو لايتعدّى - حينئذ - النّاس الّذين يعرفون تلك الجهة ، كما لو كان التّحدّي بالبلاغة أوِ الفصاحة فقط فإنّ دائرة التّحدّي والإعجاز لا تتعدّى غير العارفينَ باللُّغة العربيّة وآدابِها ، مع أنّ القرآن ينادي بأنّه رسالةُ اللهِ الخالدة إلى جميع أفراد المجتمع البشريّ وليس لصوص العرب (٤٤) .

ولم يكتفِ الحيدريُّ بأنّ القرآن معجزٌ من الجهات جميعِها ، فقد أشار إلى أركان التّحدّي ، الّتي بها يعرف أنّ القرآن معجزٌ من جميع جهاته ، وهي:

أ- عموم التّحدّي من حيثُ الزّمانُ والمكانُ.

ب - عموم التّحدّي على مستوى جميع العُلُومِ والمعارفِ الّتي يزخر بها العقلُ الإنسانيُّ .

ج - عموم التّحدّي لجميع النّاسِ سواءٌ كانوا منَ العلماء أو غيرهم من المستويات العلميّة الأخرى في المجتمع البشريّ (٤٥).

والقول بأن القرآن معجزٌ بالجهات كلّها لم يمنعْه من ردّ وجه (الصَّرْفَة) ، وجاء الردّ بأمرين ، ما نقله عنِ الطّباطبائيّ ، وما ذكره هو.

فأمّا الأوّل فإنّه يلزم أن يكون القرآنُ كلامًا عاديًّا صادرًا من إنسان ، وهو باطل لزومًا لأن القرآن صرّح كثيرًا بأنه كلام الله تعالى واستحالة الإتيان بمثله ، قال تعالى : ((بل كذّبوا بما لم يُحيطوا بعلمه ولمّا يأتِهم تأويلُهُ))(سورة يونس / ٣٩.(

أمّا الثاني ، فإن الحاجة البشرية إلى النّبوّة والوحي الإلهيّ تنبع من أنّ الإنسان لايستطيع الوصول إلى كماله الحقيقيّ بالاعتماد على قدراته العقلية وتجاربه العلميّة فقط ، فالإنسان عاجز عن تحديد مصداق كماله الحقيقيّ ، وإنّ افتراض قدرة الإنسان على الإتيان بمثل القرآن سيفضي إلى أن تكون النّبوّة والوحي الإلهيّ للإنسانيّة لغوًا لا محصّلَ له (٤٦) .

سادسًا : النَّقْدُ والإعجازُ للدُّكتور محمّد تحريشي

منَ الكتب الحديثة في إعجاز القرآن ، والّذي أبان فيه مؤلّفُه الدكتور محمّد تحريشي عن إسهام علماء الإعجاز في تأصيل الدّرْس النّقديّ للنّص القرآنيّ ومعاينة اشتغال علماء الإعجاز والبيانيّين العرب في فَهْمِ النّصّ القرآنيّ في ظلالِ قراءاتهم التّحليليّة

وممارساتهم التّعامُليّة للنّصّ القرآنيّ ، وتبيان تمظهرات هذا الدّرس في رحاب الإعجاز القرآنيّ.

وسنحاول تِبيان هـذا الأمـر في ضـوء اسـتعراض معـالم هـذا الكتـاب ومظـاهره ، وهي:

١ -القرآن الكريمُ قيمة جماليّة مثالية

من أجلِ الانطلاق والاندلاق إلى بيان العلاقة بـين النقـد الأدبيّ والإعجـاز القـرآنيّ أشار الدكتور تحريشي إلى أن النّصّ القرآنيّ قد شكّل قيمةً جماليّةً مثالية عند المُتلقّين منذ بدء نزوله ، وأنه تحدّى البشر في أن يأتوا بمثله ، وهذا النّصّ المعجز جاء محمّلًا بالأبعاد الدّينيّة والعقديّة فضلًا عن القيم الجماليّة اللُّغويّة ، من هنا اهتمّ الدّارسون العربُ بالقرآن الكريم وبدارسته وبيانِ إعجازِه ووضعوا دراساتٍ ومؤلفـاتٍ تكشـفُ عن نظراتهم إلى الموضوع ، فجاءت هذه القراءات لتثمين النّصّ القرآنيّ ، وهو نزوع نحو التغيّر والتحوّل والاستمرار وإعادة تشكيل الثّابت (٤٧)

٢ -ثنائيةُ الثّباتِ والتّحوّلِ في قراءة النّصّ القرآنيّ

يرى تحريشي أن القرآنَ الكريمَ ثابتٌ ومتغيِّرٌ ، فهو كتاب ثابت خالد عبر الزّمان ، ولايعدمُ أن يكون حاملًا لخاصيّة التّحوّل ؛ لأنَّه يصلحُ لكلّ زمانٍ ومكانٍ ، ولأنّه يتّسمُ بخاصيّة التّأويل والتّفسير وتعدّد القراءة ، فالنّصُّ الجيّدُ هو ذلك الّـذي لايـرضى بـأن يقرأ قراءةً واحدةً تزعم لنفسـها أنّهـا القـراءة اليتيمـة الوحيـدة الممكنـة ، بـل هـو الوجود الّذي يتحقّقُ عبر قراءات متعدّدة متنوّعة قد تتبايَن وتتغايَر ، من هنـا كـان للثّبـات والتّحـوّل أهميّـة في قـراءة الـنّصّ القـرآنيّ عنـد الإعجـازيّينَ الّـذين حـركتهم مرجعيّة ذهنيّة ثاقبة فأنتجوا أدواتٍ إجرائيّة خاصّة لفكّ استغلاق النّصّ ؛ مـن أجـل الوقوف على القيم الجماليّة الّتي تحقّقُ الإعجازَ(٤٨).

وهذا ما سنقف عليه في الفصل الثّالث عند الحديث عن (جهات الإعجاز القـرآنيّ - ثنائية الثّبات والتحوّل) .

٣ -دوافع التّأليف

كشف الدّكتور تحريشي عن دوافع الدّراسة وغاياتها ، وذكر عشرة دوافعَ ، هي:

الأوّل : الكشفُ عن مستوياتِ قراءة النّصّ القرآنيّ في التّراث العربيّ الإسـلاميّ عامّـة ، والدّرس الإعجازيّ خاصّة.

الثّاني : الوصول إلى الأدوات الإجرائيّة الّتي قُرِئ بها النّصُّ على وجـه العمـوم والـنّصّ القرآنيّ على وجه الخصوص.

الثّالث : التّعرّف على الذّوقِ الفنّيّ لأولئك القرّاء الإعجازيّينَ من حيثُ وقوفُهم عنـد بعض الآياتِ الكريمة ثم اهتمامهم بالنّصّ الأدبيّ.

الرّابع : تصويرُ النّصّ القرآنيّ للمثل الأعلى في الكتابة ، وتحقيقه للأنموذج اللّغويّ عندَ القراءة ، والّذي أنتجَ اندهاشًا وإعجابًا أدّى إلى استعمال وسائلَ تكشفُ عن قدرة الأنموذج في الوُصُول بالقارئ إلى المتعة الحماليّة والإقناع التّامّ.

الخامس : تعدُّ القراءاتُ الإعجازيّةُ حديثةً قياسًا إلى عصرِها من جهة العرض والمعالجة والنّتائج.

السّادس : تمثّلُ تلك القراءاتُ المثال الحيّ لذلك اللّقاء الأوّل بين النّصّ القرآنيّ وبين أوائل القرّاء في وضعِ الأنموذج والمثال لعمليّة النّصّ القرآنيّ.

السّابع : الوقوف على مساهمة الإعجازيّينَ في إثراء التّجربة النّقديّة العربيّة الّتي رافقت قراءة النّصّ ، وقراءة النّصّ القرآنيّ على وجه الخصوص.

الثّامن : التّعامُلُ معَ الإعجاز على أنّه مفهوم مركزيّ لقراءات عديدة ، ومفتاح أساس لفكّ استغلاق النّصّ القرآنيّ.

التّاسع : المادّة النّقديّة المتوافرةُ في الدّراسات الإعجازيّة ، وهي تكشف لنا ميدان النّقد التّطبيقيّ عند العرب ، إذ واكبت هذه الدّراسات التّجربة النّقديّة العربيّة فأمدّتْها بمادّة وفيرة غنيّة.

العاشر : إنّ تجربة الدّراسات الإعجازيّة قد أفادتْ ممّا وصل إليه الفكرُ الإسلاميّ من رقيّ وازدهار في ضوء اتّصال المسلمين بالتّجارب الإنسانيّة الأخرى (٤٩)

٤ -هيكليّةُ الكتابِ وخُطّتُهُ

جاء الكتابُ في بابينِ ، اشتمل الأول على ثلاثة أفْصُل ، هي : الأول : أوّليّات التّفكير النّقديّ في الإعجاز . تناول فيه مفهوم الإعجاز ، واتجاهات الدّارسين في بيان إعجاز القرآن . ثمّ الحديث عن أبي عبيدة المثنّى البصريّ بوصفه رائدًا في الدّرْس الإعجازيّ بحسب زعمه.

وجاء الفصل الثاني بعنوان (التّشكيل البلاغيّ لإعجاز القرآن الكريم) تناول فيه ثلاث فِقْراتٍ ، هي : مراتبُ الكلام وأقسامُهُ ، التّشكيل الفنيّ للنّصّ ، البلاغةُ والفصاحةُ والإعجاز .

وجاء الفصل الثّالث بعنوان (النّقْد الجماليّ للتوجّه الجماليّ) ، تناول فيه ثلاثَ فِقْراتٍ ، هي : المجاز جماليّة الانزياح ، الاستعارة جماليّة الأداء اللُّغويّ ، الإيجازُ جماليّة الاقتصاد اللُّغويّ.

واشتملَ البابُ الثّاني على ثلاثة أفْصُلٍ أيضًا ، وهي : الأول : النَّظْمُ أساسُ الإعجازِ . وجاء الثاني بعنوان : نُضْجُ نظريّةِ النَّظْمِ (النّصّ والإجراء) . وانعقد الثّالثُ بعنوان : النَّظْمُ والإعجازُ.

٥ - وجوهُ الإعجازِ (العرضُ والتّحليلُ)

في ظلالِ عتبةِ عنوان الكتاب وبيانات الباب الأوّل يرى الدّكتور تحريشي أن وجوهُ الإعجازِ على وَفْقِ النّظريّة النّقديّة تكمنُ في جانبين ، وهما :

الأوّل : التّشكيلُ البلاغيُّ لإعجاز القرآن الكريم

يرى تحريشي أنّ التّشكيلَ البلاغيَّ من أهمِّ المُقارباتِ النَّقْديّةِ للنّصّ القرآنيّ ؛ من أجل الكشفِ عنِ الجانبِ الفنّيّ لإعجازِ القرآنِ ، وقد تزوّدُ فريقًا منَ الباحثين بأدواتٍ إجرائيّة تنهلُ من خُصوصيّةِ النّصّ المقدّس ، ويكشفُ هذا المنحى والتّوجّه عن قراءة جديدةٍ تنطلقُ من أُسُسٍ جماليّةٍ وفنيّةٍ ، وهي قراءةٌ ترتفعُ بالقارئ إلى مستوى النّصّ المقروء فكريًّا ومعرفيًّا وفنيًّا (٥٠)

ولاشكَّ أنّ الّذي قامَ هؤلاء الإعجازيّونَ كان لتكشيف جماليات النّصّ ؛ من أجل إنتاج المعرفة المكوّنة والعناصر ، هذا الفعل هو الّذي حرّك علماءُ الإعجازِ ، كما يقول الدّكتور حمّادي صمود : ((باتّجاه التّوسّع في دراسة مختلفة الأسباب ورصد ما تُولّده في الكلام من طاقاتٍ في التّعبير وقدرات على إحلال النّصّ من البلاغة مراتبَ قد تبلغُ به غاية لاتدرك ، وعند هذه النُّقطة يتطابقُ البحثُ في الإعجازِ والبحثُ في إمكانيّات اللُّغة ووجوه تصريف الخطاب))(٥١).

ومن أجلِ أن يقرّرَ هذا الوجه الإعجازيّ تحدّثَ الدكتور تحريشي- عن تجارب بعض البلاغيّين والنّقاد العرب القدماء ممّن خاضوا في المجال البلاغيّ وما خصّ الله تعالى كلامه من مزايا بلاغيّة ، وأولى التّجارب الّتي أشار إليها تجربة ابن قتيبةَ الّذي ((لم يدّخر جهدًا في استخراجِها والكشف عنها ، ولن يستطيعَ باحثٌ أن يغفلَ صنيعَ ابنِ قتيبةَ في استخراجِ ما في القرآن من أنواع المجازِ وتبويبها أبوابًا مفصّلة ... وبذلك يكون قد أسهمَ في بناءِ صرح الدّرْسِ البلاغيِّ ، وكشف عن مستوى منَ المعالجةِ يعتمدُ على بناءِ الإعجاز على أساسٍ بلاغيٍّ ، ويربط بين خاصيّةِ الإعجازِ وخصائص اللُّغة العربيّة الأسلوبيّة ، وقد خصّها اللهُ بالقداسة دون سائر اللُّغات))(٥٢).

ثمّ أبرق بتجربة الرُّمّانيّ الّذي انطلقَ في تحديده لماهيّة النّصّ من تعليله للإعجازِ في القرآن الكريم ، فشكّلَ النّصُّ القرآنيُّ الأُنموذجَ الأمثلَ ؛ لما حواهُ من خصائصَ بلاغيّةٍ وأسلوبيّةٍ تفوّق بها على كلِّ نصٍّ آخرَ ، وبذلك حقّق الإعجازَ في كلّ جانبٍ منَ الجوانب الفنيّة المشكّلة للنّصّ (٥٣) .

وتجربة أبي هلالٍ العسكريّ الّذي قسّمَ الكلام على مستويين ، مستوى إعجازيٌّ قُدْسيٌّ وهو كلام الله تعالى (القرآن الكريم) المعجز الّذي خصّه الله تعالى من حُسْن التَّأليف وبراعة التّركيب وغير ذلك من المحاسن والمزايا الّتي لا تُدركُ إلّا عن طريق البلاغة والوقوف على التّشكيل البلاغيّ لإعجاز القرآن الكريم فطريق الإعجاز هو معرفةُ البلاغة ، ومستوى بلاغيٌّ إنسانيٌّ بشقيه : الكتابة والشّعر (٥٤) .

وقفل هاته التّجارب بتجربة ابن سِنان الخفاجيّ (ت ٤٦٦هـ) في ظلال كتابه (سرّ الفصاحة) ، إذ تملّك رؤيةً واضحةً في معالجة النّصّ القرآنيّ وتحديد الخصائص

الجماليّة للنّصّ على العموم ، فكانت فصاحة الكلمة في ضوء تأليفِها من حروف متباعدة المخارج ، لها أثرٌ في تحديد شروط شروط تأليف الكلام ؛ لأنّ الكلمة تتجلّى في النَّظْم والتّأليف والتّركيب ، وهي من أهمّ الأدوات الّتي وُظّفت في دراساتِ الإعجاز القرآنيّ (٥٥).

الثّاني : الإعجازُ النَّظْمِيُّ

أبانّ تحريشي عن أنَّ الإعجازَ النَّظْمِيَّ هو أساسُ الإعجاز القرآنيّ ، بمعيّة التَّشكيلِ البلاغيّ ، يقول : ((وإن كان بعضُ الإعجازيّينَ توجّهَ نحو التشكيلِ البلاغيّ ، فإنَّ فريقًا آخرَ وعلى رأسهم الخطّابيّ والباقلانيّ والجرجانيّ أسّسَ خطابًا نقديًّا متميِّزًا يقومُ على مبدأ النَّظْمِ أساس الإعجازِ ، وقد كان هذا التّوجّهُ توجُّهًا يحملُ خصائصَ الجدّةِ في الطّرح والحداثة في المعالجة من خلال توظيف جهاز منَ الأدواتِ الإجرائيّةِ الكفيلة بالكشف عن جوانبَ أخرى من قضيّة الإعجازِ في النّصّ القرآنيِّ))(٥٦).

يعدُّ النَّظْمُ مفهومًا نقديًّا مهمًا عند فريق هذا الاتّجاه ، بل إنّه يؤدّي حقلًا دلاليًّا تتمحورُ من حولِه مجموعةٌ منَ الدّوالِّ والمدلولاتِ ، إنّه نظرةٌ جماليّةٌ للنّصّ في كلّيته ، فالنّصُّ القرآنيُّ معجزٌ بكلّه ، ومن هنا لابدّ منَ البحثِ عنِ المشتركِ بين مكوّناتِ النَّصّ من داخلِ النّصّ وليس من خارجه إلّا في حدود ، وقد سمحت هاته النَّظرةُ الدّاخليّةُ للنّصّ بالوصول إلى قيمٍ جماليّةٍ وفنيّةٍ انتصرت لصالح الإعجاز (٥٧) .

وأشار الدكتور تحريشي- إلى تجارب عدّة من الإعجازيّين ممّن قالوا بالإعجاز النَّظْميّ ، وفي مقدّمتهم الخطّابيّ في ظلال كتابه (البيان في إعجاز القرآن)، وقد اقتنص نصوصًا مهمّةً في تبيانِ إعجازيّةِ النَّظْمِ القرآنيِّ ، وقد تملّك الخطّابيّ هذه الخاصيّة الّتي مكّنتْهُ من قراءة النَّصِّ القرآنيّ قراءةً نابعةً من تملّكِ الأدوات الكفيلة بفكِّ استغلاقِ النّصّ ، إذ إنّ من جماليّة النّصّ القرآنيّ أنّه يقبلُ التّأويل ، وينفتح على القراءات المتعدّدة (٥٨) .

ثم أشار إلى تجربة الباقلانيّ الّذي وصفه بالنّاقد المجدّد في تناولِه لقضيّة الشّكل الفنّيّ للقرآن الكريم انطلاقًا من مبدأ المفارقة بينه وبين كلام العرب ، فقد تأسّسَ النّصّ عنده من تصوّرِهِ العامّ ضمن نظريّة النَّظْم منطلقًا من أنَّ النَّصَّ القرآنيَّ معجزٌ بنَظْمِهِ الّذي يخرج عن جميع وجوه النَّظْم المعتاد في كلام العرب ، وقد مهّد لهذا الوجه المختار بنقدِه لمظاهر الإعجاز الّتي ذكرها الدّارسونَ والّتي لم ينفِ وجودَها ، ولكنه أكّد على جانب النَّظْم البديع والتّأليف العجيب والبلاغة المتناهية إلى حدّ الإعجاز ، وبذلك جاء مخالفًا لسائر كلام العرب (٥٩)٠

ثمّ ذكرَ منهج الباقلانيّ في مدوّنته القائم على المقارنة بين نصّيْنِ أو بين مجموعة نصوص من فنّ القولِ ، كأن يقارنُ بين سورة كاملة بقصيدة كاملة أو سورة كاملة بخطبة أو رسالة كاملة ، والسؤال المتبادر هل كان الباقلانيّ محايدًا ؟ وهل كانت هذه القراءةُ بريئةً ؟ وهل كان النّصُّ القرآنيُّ بحاجة إلى مثل هذا التّحيُّز المبيَّت منَ

البداية ؟. ويرى تحريشي أنّ الباقلانيّ النّاقد قد قدّمَ مستويينِ منَ القراءة فهو عندما يقف عند النّصّ القرآنيّ يستعملُ لذلك لغة تكشفُ عن إحاطته بالنّصّ وجماليتِهِ إلى درجة الإعجابِ ، وهو عندما يقف عند النّصّ الشّعريّ يستعمل لغةً لاتبتعدُ عن نوع منَ التّعصّبِ والتّحيّز والانتصار للنّصّ القرآنيّ وكأنّه بحاجة إلى هذا الانحياز والميل (٦٠) .

وعلى الرّغم من ذلك فإنّ الباقلانيّ كان أديبًا ناقدًا قدّم لمحات أدبيّة وإشارات نقدية مهمة تعدّ من روح المنهج الأدبيّ وجوهره وصميمه ، ولا غرو أن يتحيّز لكتاب الله تعالى وينتصر له ؛ لكونه كلامًا إلهيًّا معجزًا من جهة ، وإنّه حاز على الفصاحة والبلاغة والنّظْم المعجز والتأليف البديع والتّركيب الباهر المميّز.

ثمّ عرّج بالحديث عن تجربة عبد القاهر الجرجانيّ الّتي يراها تمثّل النّضج في العرض والتّطبيق إذ لايكتملُ ((مفهوم النّصّ عند الإعجازيّين الّذين قالوا بالنَّظْمِ إلّا بالوقوف عند قِمّةٍ منَ القِمَمِ العالية الّتي استطاعتْ أن تحلّقَ بعيدًا ، وأن تقدّم لقراءة النّصّ خدماتٍ جليلةً حيثُ أمدّتْها بأدواتٍ إجرائيّةٍ كفيلةٍ بأن تفكَّ شفراتِ النّصِّ ، وأيّ نصّ ؟ إنّه النّصُّ القرآنيُّ ، وقد كشفت هذه القراءةُ عن أبعادٍ جديدةٍ لنظريّة النَّظْم حيثُ قدّمتِ الحجّةَ والبرهانَ على صدق الرّؤية ، لقدِ استطاعَ عبد القاهر الجرجانيّ أن يُسْهم بالكثير في سبيل إرساءِ قواعدِ نظريّةِ النَّظْمِ))(٦١)

ولعلّ الجرجانيَّ قد تميّزَ عن أقرانِه بأن قدّمَ للنّصّ القرآنيّ قراءةً جماليّةً متميّزةً ، فلم يقف عند الحدودِ الجماليّةِ الّتي رُسِمت - من قبلُ - بل تجاوزها كثيرًا من خلال رؤية متكاملة لا تسأل عنِ النّصّ القرآنيّ هل هو معجزٌ ؟ أو غير ذلك ، بل تبحثُ في الكيفيّةِ الّتي جاءَ بها النَّصُّ القرآنيُّ معجزًا ، فقدِ اسْتطاع عبد القاهر أن يتحسّسَ ويستشرف مواطنَ الجمال في لغة القرآن الكريم ، في ظلال توخّي معاني النَّحْوِ الّذي يقوم عليه ترتيبُ الألفاظِ في النَّفْسِ (٦٢) .

وختم تجارب الّذين قالوا بالإعجاز النَّظْمِيّ بتجربة الزّمخشريّ في تفسيره القيّم (الكشّاف) ، قال تحريشي : ((والّذي يتتبّعُ ما جاء به الزّمخشريُّ يصلُ إلى قناعة أنّ الرّجلَ أرادَ أن يتمَّ ما بدأه الحرجانيُّ وأن يجعلَه ينفتح على آفاقٍ أخرى ومجالات أوسع وأرحب ... ويُعدُّ الكشّافُ منَ المصادرِ الأساسيّةِ الّتي أسّستْ لنظريّةِ النَّظْمِ ، فقد قدّمَ إجراءً نقديًّا استطاعَ أن يقفَ به على جماليّات النّصِّ القرآنيِّ من خلال نَظْمِهِ المُميّز))(٦٣).

إنَّ التّفكيرَ إلى وضع نظريّة النّظْم قادَ إلى إعادة النَّظر لبعض النّصوصِ المغيّبة في تُّراثِ العربيّ ، وقراءتها من جديد ، وأن تمدَّ الدّرس النّقديّ العربيّ بأدواتٍ وآلياتٍ إجرائيّة وتطبيقيّة جديدةٍ تكشف عنِ القدرات الإيحائيّة والتّعبيريّة والإعجازيّة للنّصّ القرآنيّ المعجز ، ممّا يظهرُ البون الشّاسع بين كلام الله تعالى وكلام العرب من جهة النّظم والبلاغة والأسلوب وغيرها .